التأسيس الفلسفي لفهم النص القرآني عند صدر الدين الشيرازي

د. أحمد رسن صحن
كلية الآداب – جامعة البصرة

يُعد محمد بن إبراهيم الشيرازي[١] (ت : ١٠٥٠هـ) مبتكر فلسفة الحكمة المتعالية الجامعة للعقل والنقل والعرفان ، وقد اتخذ منها منظومة تأسيسية لفهم النص القرآني فهماً عميقاً مرتبطاً بالحقائق التي كشفها العرفان[٢] .
إنَّ هذا البحث يتكيء على فلسفة الحكمة المتعالية أساساً يبيّن في ضوئه الصورة الجديدة للقراءة القرآنية عند الشيرازي – وهي جديدة – بمعنى أنها تتجاوز القراءة النمطية السائدة ذات البعد اللغوي والبلاغي وستكون صورة مكثفة واضحة تتجنب التفاصيل وبيان الأدلة لإثبات المطالب الفلسفية ، وهي تنبني على المباحث الآتية :

١- المبحث الأول : مقدمة في العقل والعرفان .
٢- المبحث الثاني : الأسس الفلسفية في فهم النص القرآني .
٣- المبحث الثالث : الآثار المعرفية في فهم النص القرآني .

مقدمة : العقل
العقل في الإنسان هو قوة من قوى النفس مجردة عن المادة ذاتاً وفعلاً [٣] ، وله وظائف هي :

والثاني يعني أن العقل يجزيء المفهوم الواحد إلى مفاهيم كثيرة ، مثل تحليل الإنسان إلى الحيوان والناطق وتحليل الناطق إلى الجسم المتحرك بالإرادة [٦].

الاستدلال واليقين [٧] .

يتضح من النظر في عمليات العقل أن وظيفته ترتبط بالصورة الذهنية والمعاني الحاكية عن الموجودات الخارجية فتكون معرفته حصولية ولا يرتبط مباشرة بالمعلوم فلا يقدر أن يدرك الموجودات كلها دفعة واحدة ولا يطالع جمال الحضرة الإلهية ؛ لأنه مقيد بقيود الزمان والمكان والحواس [٨] .
إذن العقل يقدّم رؤية فلسفية عن الوجود أي صورة عقلية تعبر عن حقيقة الوجود ولا يشاهد حقيقة الوجود .

العرفان :
العرفان : هو الرؤية القلبية والمشاهدة المباشرة للحقائق والموجودات ، ولا توجد صورة عقلية تفصل بين العارف ومعارفه ، فهو يرى موجودات العوالم كلها بالحواس الباطنية ، فللنفس في ذاتها سمع وبصر وذوق ولمس ويد باطنة (٩) .
فإذن المعرفة الشهودية معرفة يقينية تكشف الواقع كما هو ، فتقدّم الرؤية الحقيقية عن الواقع ، وبذلك تقوم بتصحيح الرؤية الفلسفية ، وتعزّز قيمة الفلسفة أي أنها تكشف عن تطابق الفلسفة والواقع من خلال رؤية الواقع . ولذلك يحق على المفسّر أن يعتمد على

معطيات العقل والكشف (القلب) في معرفة النص القرآني لكي تكون قراءته صحيحة .

المبحث الثاني : الأسس الفلسفية في فهم النص القرآني .

هناك مجموعة من الأسس الفلسفية العرفانية قامت عليها فلسفة الحكمة المتعالية ، وهي أسس مبتكرة تُعطي رؤية جديدة عن الوجود ، وهي منسجمة ومترابطة تذعن العقل إلى الاطمئنان بها ، ومن أهم الأفكار الفلسفية التي وجدت في تفسير الشيرازي ما يأتي :

١- أصالة الوجود واعتبارية الماهية : تتضح هذه النظرية في أن العقل يحلل الموجودات عندما يواجهها إلى ماهية ووجود ويلاحظ بينهما نسبة واتصاف فعندما يرى الكتاب في الخارج يحلله إلى مفهومين مثل : مفهوم (الكتاب) و مفهوم (موجود) ، والوجود هو صاحب الآثار . أما الماهية (الكتاب) في مفهوم اعتباري لا وجود له في الخارج ، فيكون الوجود الواجب هو الأصل وعنه تصدر الموجودات كلها وهي بالنظر إلى الذات الإلهية علامات دالة على الوجودات الإمكانية التي هي مظاهر أسمائه وصفاته وهي في ذاتها ماهيات لا وجود لها لا عيناً ولا عقلاً (١٠)

ويترتب على هذه الحقيقة أن هدف القرآن الأصيل هو معرفة الوجود الواجب ، والارتباط به ؛ لأنه منشأ الكمالات كلها وما سواه ماهيات قائمة بوجوده المطلق .

وينتج عن هذا الأساس الفلسفي أمر آخر ، هو :

٢- إنَّ الوجود حقيقة واحدة مشكلة ذات مراتب من الواجب بالذات إلى المادة الأولى (١١) فالنور – الوجود – حقيقة واحدة لها مراتب متفاوتة في القوة والضعف ، والكمال والنقص وغاية كماله النور الإلهي – الوجود الإلهي – ثم الأنوار العقلية والنفسية والأنوار الكوكبية والعنصرية (١٢) وسبب تعدد المراتب الوجودية هو ظهور كمالات الله وتجلي صفاته في موجودات تلك المراتب (١٣)

٣- تجسّم الأعمال والعقائد :

تتضح هذه النظرية ببيان حقيقة النفس الإنسانية ، فهي تتركب من قوى عملية وعلمية ، والعملية منقسمة على : شهوية وغضبية والعلمية منقسمة على : عقلية ووهمية (١٤) وهذه القوى تتصارع داخل النفس وتدفع الإنسان إلى ما يلائمها من أعمال وأخلاق وأفكار ، وتوجد رابطة حقيقية بين النفس والعمل وهذا الارتباط الوجودي يمر بمراحل ثلاث : الحال والملكة والاتحاد ، وفي المرحلة الثالثة تكون الملكة جزءاً من حقيقة الإنسان ووجوده (١٥) ، فتكون له صورة باطنية إنسانية أو شيطانية أو حيوانية واحدة أو صور متعددة للسباع والشياطين والوحوش وهي صور مجردة لغضبه وحقده وحسده ورياءه ومكره (١٦) وتكون هذه الصور أيضاً خارج النفس ناشئة عن الاعتقادات والأفكار ، وهي موجودات متحققة مستمرة الثبات والدوام مؤثرة في النفس إذاذاً وإيلاماً (١٧) وهي أقوى وجوداً وأتمّ وأشدّ من موجودات الدنيا (١٨) .

٤- الحركة الجوهرية :

هذا المبدأ الفلسفي يعني أن الموجودات في ذاتها تتحرك حركة جوهرية ، وهي في تجدد ذاتي لا بمجرد الصفات والأغراض ، وهي تتجه إلى الكمال المطلق وذلك التجدد أمر محسوس في الجواهر المحسوسة مثل البذرة في النبات في حركتها نحو الكمال والنطفة في الحيوان في تطورها من حال إلى حال ، وخلقة الإنسان وتكامله تدريجياً إلى أن يصل إلى القرب الإلهي (١٩) .

٥- اتحاد العاقل والمعقول :

إنَّ النفس الإنسانية تتحد بصور الأشياء التي تستحضرها ، فالصور ماثلة عندها لا حالّة فيها (٢٠)

فالإنسان كلما وصل إلى درجة وجودية اتحد بها واتصف بصفاتها وأحكامها وصدر منه أفعالها وآثارها المختصّة ، أي يتحقق بحقيقتها ويتحد بماهيتها ، ويبقى يتدرج من درجة وجودية إلى أخرى إلى أن يصل إلى سدرة المنتهى (٢١) . أي نهاية استعداده للتكامل .

وهذا الاتحاد هو اتحاد وجود العاقل مع وجود المعقول بالذات ويُعد المعقول مرتبة من مراتب وجود النفس الإنسانية (٢٢) .

إنَّ هذه الأسس الفلسفية الخمسة تتعاضد معاً لإيجاد قراءة قرآنية عميقة تكشف انفتاح النص القرآني على جميع مستويات التلقي الإنساني وفي جميع الأوقات وفي جميع المراتب الوجودية للنفس ، وبالتالي تكون قراءة جامعة تتضمن قراءات لا حصر لها بحسب اختلاف مستويات الإدراك واختلاف أدوات المعرفة واتجاهات النظر الفكري .

فهي قراءة عالمية ؛ لأنها توظف المعارف الإنسانية جميعها في فهم النص القرآني ، وتؤكد تعدّد مراتب فهم هذا النص الإلهي ، ولا تلغي أية مرتبة إلا أنها تطمح إلى المرتبة الأولى .

المبحث الثالث : الآثار المعرفية في فهم النص القرآني :

يمكن أن تقسم الآثار المعرفية الناتجة عن الأسس الفلسفية المتقدمة على قسمين :

١- الآثار الجزئية : وهي معارف قرآنية ترتبط بالكلمات القرآنية وتترشح من ارتباط المفردات بالبعد الفلسفي ، فإذا اتضحت العلاقة الوجودية بين الجانب الوجودي والجانب اللفظي اتضحت حقيقة الكلمة القرآنية وبعدها الدلالي وسرّ وجودها في النص القرآني ، ولعل من أبرز الآثار الجزئية ما يأتي :

أ- المرتبة الأسمائية : إنَّ القرآن الكريم حقيقة واحدة عالية عند الله ، ثم أنزله فتجلّى في مراتب وجودية متعددة إلى أن وصل إلى المرتبة اللفظية ، ولذلك تتعدد أسماء القرآن ويسمى في كل مرتبة باسم يرتبط بها ويناسبها ، فيسمى في عالم بالمجيد ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ (البروج:٢١) واسمه (علي) في عالم آخر ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف:٤) وفي نشأة أخرى اسمه (مبين) ﴿ وَكِتَابٌ مُبِين ﴾(المائدة: من الآية١٥) وفي مقام آخر اسمه (نور) ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾(التغابن: من الآية٨)

وأسماء القرآن تعبر عن مراتب فعل الله تعالى و ((يتضح من حاصل الجمع بين هذه الآيات وغيرها أنّ اللوح المحفوظ والكتاب المكنون والكتاب الحفيظ والكتاب المسطور هي أسماء حقيقة واحدة وأوصاف متعددة للكتاب المبين الذي يعدّ من مراتب علم الله الفعلي ، وهو أم الكتاب)) [٢٤] .

ويترتب على هذا الأمر أنه إذا أردنا أن نفهم حقيقة كل اسم أو وصف للقرآن ينبغي أن نعرف المرتبة الوجودية لهذا الاسم أو الوصف ، بحسب العوالم الوجودية لكي يتحقق التطابق التام بين الاسم والمسمى .

ب- تعدد مراتب اللفظ الواحد : وهذا أثر من آثار انعكاس خصائص الحقيقة الواحدة المتجلية في جميع المراتب ، وينطبق هذا الأثر على أكثر ألفاظ القرآن ، فيكون اللفظ هو الظهور الأخير لحقيقته العالية ، وهو لا يظهر لفظاً إلا بعد أن يمر ويظهر في المراتب المتوسطة ، فيراد من اللفظ في مرتبته اللفظية المعنى الظاهر المحسوس وله حقائق في المراتب الأخرى فلفظ (الروح) يطلق على الاسم البخاري ، وعلى النفس الحيوانية أو الإنسانية وعلى الروح الإلهي [٢٥] .وهذه الحقائق موجودة في مراتب متعددة ابتداء من هذه الدنيا إلى العالم الإلهي المجرد ، وكذلك ستختلف صور حقائق اللفظ الواحد فالشجرة الزيتونة في القرآن هي عبارة عن شجرة محسوسة في هذا العالم ، ولها صورة مجردة في العوالم الأخرى فتكون عبارة عن المقامات العالية [٢٦] ، وكذلك الكتاب هو هذا الكتاب المقروء عندنا ويكون بمعنى النبي (ص) أي مقامه وباطنه كتاب في تلك العوالم المجردة بناءً على أساس اتحاد العاقل بالمعقول [٢٧] .

ج - الأصالة الأسمائية :

إنَّ الأصل اللغوي قاعدة لغوية معروفة في الفكر العربي القديم ، وهو أن الألفاظ المشتقة ترجع إلى أصل لغوي واحد إلا أن صدر المتألهين بنى هذه الحقيقة اللغوية على أساس فلسفي ، وهو أن الموجودات الممكنة لها علل ، وهذه العلل تنتهي إلى موجود مستقل مطلق دفعاً للتسلسل [٢٨] ، لأنه مستحيل عقلاً .

تسلغوية عن الأصالة اللغوية في مواضع كثيرة من تفسيره ، مثل اشتقاق لفظ (الإنسان) [٣٠] ، ولفظ (الثلّة) [٣١] وغيرها .

إنَّ الأصل اللغوي هو المرتبة الأولى والحقيقة التي ترجع إليها الألفاظ المشتقة منها في المرتبة اللفظية .

التركيب الأسمائي :

إنَّ التركيب في المفاهيم عمل عقلي إذ يقوم العقل بتركيب أمر واحد من أمرين ، ويستفيد الشيرازي من قضية التركيب الفلسفي الأسمائي إذ تتولد الجواهر المركبة من جواهر بسيطة ، وهذا يعني أن الجواهر قسمان :

جوهر بسيط مثل العقل والنفس .

جوهر مركب من أجزاء وجودية مثل المادة والصورة أو أجزاء متخالفة الطبائع كالمركبات المعدنية والنباتية والحيوانية [٣٢] .

إنَّ صفات هذه الجواهر تسري في الألفاظ فتكون على نوعين :-

لفظ بسيط عيني ذا حد تفصيلي كـ (الحيّ) . فإن مفهومه مركب من : (الدّراك الفعّال) فالاسم البسيط وحده مركب من (الدراك) و (الفعال) .

لفظ مركب كـ (الحي القيوم) وهو اسم واحد لكنه مركب [٣٣].

إذن العقل بإمكانه أن يولّد أسماء جديدة من تركيب أسماء بسيطة .

هـ - الحقيقة الأسمائية : يفيد الشيرازي من الحد بيان حقيقة الاسم ، فالحدّ ((عبارة عن صورة عقلية تفصيلية يدلّ عليها بألفاظ متعددة دالة على ما يدل عليه لفظ واحد هو معنى إجمالي لذلك الشيء بل معناه عين معناه)) [٣٤] .

وهذا الحد ينطبق على ((كل لفظ وضع لمعنى إجمالي٣. قابل للتحليل إلى معانٍ متعددة تدلّ عليها ألفاظ متعددة ويكون الأول محدوداً والثاني حداً))[٣٥] .
فالقضية - بعد التحليل – تتركب من :
١. المحدود : وهو اللفظ الواحد المجمل .
٢. الحد : وهي الألفاظ المتعددة الدالة على المعنى الإجمالي للفظ الواحد (المحدود) .
٣. المعنى الإجمالي للفظ المحدود .
٤. المعنى التفصيلي لمجموع ألفاظ الحد .
فيكون حدّ لفظ (الله) باعتبار أنه دال على الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى ، فالله لفظ واحد يدلّ على معنى إجمالي فهو محدود ، وحدّه من حيث المعنى ((مفهومات جميع الأسماء ومظاهرها التي هي أجزاء العالم ظاهراً أو باطناً)) [٣٦] .
وهذا التحديد من حيث المعنى الذهني بحسب الإدراك العقلي دون المدرك والملحوظ فالذات الإلهية بسيطة ومتعالية عن التصور والتمثل والتعقل ، وإنما العقل يدرك هذه المعاني من خلال ملاحظة مظاهر الأسماء الإلهية [٣٧] لا من خلال ملاحظة الذات .

٢ - الآثار التركيبية :ترتبط هذه الآثار المعرفية ببيان دلالات التركيب القرآني في ضوء الأساس الفلسفي المتقدم وهي تتمظهر في ما يأتي :
أ – تعدد مراتب التركيب القرآني :
إنّ كل تركيب قرآني يمكن أن تتعدد مراتبه تبعاً لانطباقه على المراتب الوجودية ، وبذلك تتفاوت درجات المعنى ضعفاً وقوةً وتقدماً وتأخراً مع بقاء المعنى الأصل فيكون للإيمان مراتب في الكمال والنقص [٣٨] . وللكفر مراتب [٣٩] وللذكر مراتب [٤٠] وغير ذلك .

ب – اختصاص بعض التراكيب بمرتبة واحدة :
ترد في النص القرآني بعض التراكيب لا تتفق مع المعارف القرآنية من حيث الظاهر ، فيقوم المفسِّر بتوجيهها جهات متعددة لغرض رفع التناقض والاختلاف وقد يؤدي ذلك التوجيه إلى تغيير التركيب نفسه وتشويهه .
إن الشيرازي يرى أن مثل هذا التركيب ينبغي أن يؤخذ بظاهر معناه وهذا المعنى الظاهر يرتبط بمرتبة من مراتب القرآن دون المراتب الأخرى كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (السجدة:٢١) ذكر الشيرازي مجموعة من التفاسير لهذا التركيب (لعلهم يرجعون) ، ومنها :
١. إنه راجع إلى العباد لا إلى الله تعالى .
٢. جاء على طريقة الإطماع دون التحقق .
وقع مجازاً فالله يريد من العباد أن يتقوا ويتوبوا إليه ليرجّح أمرهم .
لا يرضى الشيرازي بهذه التفسيرات ، ويرى أن علم الله تعالى له مراتب : مرتبة الذات وهو علم مطلق بذاته يعلم جميع الأشياء الكلية والجزئية ، ثم مرتبة تفصيل المعلومات الكلية ، ثم مرتبة الجزئيات والشخصيات المقدرة (عالم القدر) ، ثم مرتبة وجودات المعلومات في موادها الجزئية الخارجية .
والأخيرتان قابلتان للتغيير ، فيتضح بهما عروض التغيير في علم الله تعالى بالحوادث من حيث هو معلوم لا بما هو علم ، كذلك الحكم في مراتب إرادته فعلمه بالأشياء بعينه إرادته بمعنى مراديته [٤١] .
فالتركيب المتقدم يفيد الترجي ويرتبط بمرتبة إرادة الله أو علمه الفعلي لا علمه الذاتي والعلم الفعلي قابل للتغيير والتبديل ، وهذا التفسير يحقق أموراً :-
١. ثقافة معرفية عالية بالذات وصفاتها وأفعالها ، وينتج عنها عبادة حقيقية وتنزيه للذات المقدسة على أساس فلسفي صحيح .
٢. تجاوز قضية المجاز التي تطرح المعرفة المفهومية دون ضوابط [٤٢] .
٣. المحافظة على النص القرآني في جميع مراتبه اللفظية والباطنية .
٤. إعجاز القرآن الكريم يظهر في تطابق مرتبته اللفظية لمراتبه المجردة .

ج - غلبة الحقيقة :
يفسر الشيرازي أغلب التراكيب القرآنية تفسيراً حقيقياً ويرفض المعنى المجازي اعتماداً على أسسه الفلسفية ومن ذلك :
- قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ... يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (الزلزلة:١،٤)
يرى أن الأرض – بناءاً على الحركة الجوهرية – دائمة التحول والحركة في الاستكمال من صورة إلى صورة إلى أن تصل إلى الحضرة الإلهية فتصير جوهراً ناطقاً تحدث أخبارها بإذن الله [٤٣] - تعالى – وهذا التحديث حقيقة ناشئة عن كون الأرض موجوداً مجرداً وكل مجرد عالم .

- قال تعالى : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ (يس:٥٥)
إنهم منشغلون بعمارة الجنة وهم قائمون بإنشاء الصور البهية وهي صور موجودات خارجية حية يفرحون بها ، وهذا التفسير قائم على أساس نظرية تجسّم الأعمال ، فالسعيد هو ينشيء جنته ويحفظها بإذن الله تعالى [٤٤] .

وهو يرى أن حمل الألفاظ على مجرد التخيل والتمثيل يسدُّ باب معرفة حقائق القرآن المعبّر عنها بهذه الألفاظ ، وينبغي أن تجرد معاني الألفاظ من الأمور الزائدة والإبقاء على المفهوم الأصلي والبحث عن روح المعنى وهو أمر عقلي مطلق خالٍ من أي خصوصية [٤٥] .

٣- الآثار الكلية :
تتضح من القراءة الكلية للأسس الفلسفية المتقدمة آثار كلية على النص القرآني تتعانق لتشكل رؤية كلية له ، وهي تتمظهر بمظهرين هما :

١- تعدد مراتب فهم النص القرآني : تبدو المراتب لفهم القرآن عندما نلاحظ التطابق التام بين النص القرآني والعوالم الوجودية التي تحدث عنها ، وهو يظهر في كل عالم بمظهر وحقيقة تناسب ذلك العالم الذي تنـزّل فيه وتلك العوالم تدرك بمناهج متعددة ولكل منهج أدواته المعرفية الخاصة به تتمثل بالحس لعالم المادة وبالخيال لعالم المثال وبالعقل والقلب لعالم العقل .
فتتوسع قراءات النص القرآني تبعاً لتعدد مراتبه وبالتالي تبعاً لتنوع المناهج المعرفية وأدواتها وقوى الإدراك البشري ، وسوف يتشكل النص القرآني بحسب مراتبه الآتية :

١- مرتبة الظاهر المحسوس وتدرك بالحواس الباطنية (الخيال والوهم) وهي صورة معنوية مختلطة بالعوارض الجسمانية من كم وكيف ووضع وأين ... فتكون القراءة القرآنية ناتجة من الفهم المباشر للخطاب القرآني على ضوء قوانين اللغة .
٢- مرتبة الباطن وتدرك بالروح الإنسانية ، وهي صورة معنوية مجردة عن الحس والمادة وأعراضها ... وهذه المرتبة تقرأ وتدرك عندما تتجرد الروح عن المادة وتتصل بالعالم العقلي .
٣- مرتبة الوحدة الإلهية ، وهي مرتبة عالية موجودة عند الله تعالى قبل النزول إلى عالم العقل والأمر ... وهذه المرتبة أدركها الرسول (ص) عندما تجرّد وعرج عن عالمي الخلق والأمر [٤٦] وتدرك بالمشاهدة القلبية والعلم الحضوري
ويرى الشيرازي أن المرتبة اللفظية (مرتبة الظاهر) هي من كمال ظهور الذات الإلهية ، وهي مظهر من مظاهر اللطف الإلهي بعبادة ؛ لأنَّ المراتب العالية لا يصل إليها أغلب الناس ؛ لأنَ طريق الوصول إليها يحتاج إلى التجرّد عن الدنيا ويحتاج إلى علم حضوري هو المشاهدة القلبية ، لذلك يوجب الشيرازي أن تحمل الألفاظ القرآنية على معانيها المتعارفة لئلا يوجب الالتباس على أغلب الناس [٤٧] .
وهذا يعني أن القرآن نزل بلغة العرب ليكون أوضح دلالة وأفصح بياناً ، ومعرفة ما هو بيّن شيء مطلوب لأمر آخر وهو معرفة حقيقته ، وليس هدف العربية والتفسير فهم المعاني بل الهدف الحقيقي والنهائي هو الكمال البشري والارتقاء إلى العوالم الأخرى وفهم المراتب العالية للنص القرآني والقرب الإلهي بعد التخلّق والتحقق بها [٤٨] .

٢- الأمثال القرآنية :
اتضح أن النص القرآني المكتوب هو المرتبة الأخيرة من مراتب القران نزل بصورة ألفاظ لإيصال الحقائق إلى الناس ، وتقريبها إلى الأذهان ، وهذا الأمر يؤدي إلى أن تكون هذه الألفاظ كلها أمثال تعبر عن الحقائق القرآنية العالية .
وهذه الأمثلة والصور القرآنية تظهر في العوالم كلها بصورة مناسبة لكل عالم ، ((فيكون جميع ما في هذا العالم أمثلة وقوالب لما في عالم الآخرة ، وما في عالم الآخرة مُثُل وأشباه للحقائق والأعيان الثابتة – الصورة العلمية للأشياء عند الله تعالى – التي هي مظاهر أسماء الله تعالى ، ثم ما خلق في العالمين شيء إلا وله مثال وأنموذج في عالم الإنسان)) [٤٩] .
فتأتي وراء ما نعقله من القرآن مرتبة بالنسبة إلى القرآن المتعقل بمنزلة الروح م الجسد والمتمثل من المثال ، وهو المسمى بالكتاب الحكيم ، وهو ليس من سنخ الألفاظ ولا المعاني ، وهو حقيقة معنى التأويل [٥٠] وبهذا يكون القرآن مثالاً للمرتبة العالية ، فتكون ألفاظه وتراكيبه وقصصه أمثالاً تعبّر عن حقائق كلية مجردة عن المادة وعوارضها فتكون- مثلاً-
: ((الأرواح والقلوب بمنزلة الكتب والصحائف ويصح إطلاق الكتاب والصحيفة عليها لقوله تعالى : ((أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ))(المجادلة: من الآية٢٢) . وهل الكتاب إلا ما كتب فيه شيء ، سواء كان كتابة عقلية أو حسية ، وهل الكتاب إلا حضور الحقائق ، سواء بآلة القصب والمداد في قرطاس وجلد حيوان أو بواسطة الملك الملقي للحقائق في صفحة الدماغ أو النفس بمداد الفيض الإلهي ..)) [٥١]
وقد تبنّى نظرية الأمثال القرآنية العلامة الطباطبائي وبيّن أن سبب ظهور الأمثال في النص القرآني ، لأنه لا يمكن إلقاء معنى من المعاني إلى إنسان إلا عن طريق معلوماته الذهنية ولما كان مأنوساً بالحس فخوطب عن طريق المحسوسات كما يمثل لذة النكاح للصبي بحلاوة الحلواء ، واختلاف الأفهام وعموم أمر الهداية هو الموجب أن يساق البيانات القرآنية مساق الأمثال ، وهو أن يتخذ ما يعرفه الإنسان ويعهده ذهنه

من المعاني فيبيّن به ما لا يعرفه لمناسبة بينهما [٥٢] .

وعدَّ العلامة الطباطبائي قصة سجود الملائكة لآدم (عليه السلام) وامتناع إبليس (لع) مثالاً قرآنياً لحقيقة التكوين ، فهي ((كالمثل يمثل به ما كان الإنسان فيه قبل نزوله إلى الدنيا من السعادة والكرامة بسكونة حظيرة القدس ومنزلة الرفعة والقرب ودار نعمة وسرور ، وأنس ونور ، ورفقاء طاهرين وأخلاء روحانيين ، وجوار رب العالمين)) [٥٣]
وبذلك ينكشف أن ((جميع المعارف القرآنية أمثال مضروبة للتأويل الذي عند الله))[٥٤].

الخلاصة :

إنَّ صدر الدين الشيرازي فيلسوف وعارف عظيم المرتبة تتجلّى عظمته في مؤلفاته العميقة وفلسفته المتعالية ، وأثره الكبير في العرفاء والفلاسفة المتأخرين .
وكانت الأسس الفلسفية عنده قوية ومتحدة ومنسجمة في فهم النص القرآني وبيان حقائقه ؛ لأنَ العقل يعطي صورة ذهنية عن الوجود والعرفان يكشف حقيقة الوجود وبذلك تتضح صحة الرؤية العقلية ومطابقتها للواقع فكانت الأسس الفلسفية عند الشيرازي مؤثرة في فهم كلمات النص القرآني فهماً عميقاً منسجماً مع مراتب الوجود ابتداءً من المعنى الظاهر للألفاظ وانتهاءً إلى حقيقة تلك الألفاظ بحيث لا يوجد تضارب بين جميع مراتب اللفظ الواحد كما أنه أعطى أساساً فلسفياً لتعزيز نظرية الأصل اللغوي وبيّن أنّ هناك إمكانية تركيب الأسماء أي أن الاسم الواحد يتولّد من التركيب العقلي بين اسمين وإمكانية معرفة حقيقة الأسماء ببيان حدودها وأدرك أنَّ سمات الألفاظ هي آثار تجليات الحقيقة المجردة لها .فوجدت آثار تركيبية في النص القرآني ظهرت على مستوى التراكيب القرآنية تتمثل بغلبة الحقيقة على المجاز واختصاص بعض التراكيب بمرتبة وجودية قرآنية وتعدد مراتب التركيب القرآني . واتضحت الآثار الكلية للأساس الفلسفي على النص القرآني كله بمظهرين ، هما تعدد مراتب فهم النص القرآني وانفتاح القراءة القرآنية تبعاً لتعدد مراتب وجود النص القرآني ولتعدد مسويات الفهم عند المتلقي .
إنَّ الشيرازي يعدّ المرتبة الظاهرة للنص القرآني باباً للدخول إلى المراتب الأخرى فهو لا يلغيها ؛ لأنها مظهر من مظاهر رحمة الله ولطفه في تفهم عباده ومخاطبتهم بما يدركون وهناك تطابق بين مراتب القرآن ما يؤكد إعجاز النص القرآني .

إنَّ القرآن كله أمثال مضروبة لتفهم المستوى الداني من التلقي ، وهي في الوقت نفسه تعبّر عن الحقائق القرآنية المجردة ، ويمكن إدراك تلك المراتب بالترقي الوجودي والتجرد والرؤية القلبية التي توصل إلى الهدف الأساس من النص القرآني وهو معرفة الله تعالى وصفاته وأسمائه والتخلّق بأخلاقه للوصول إلى القرب الإلهي الولاية الربانية ، وهذا الهدف النهائي يجعل النص القرآني منفتحاً على الإدراك البشري دائماً ومصدراً أساساً للبحث عن السعادة الحقيقية .

الهوامش

١- ينظر : مقدمة الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة ، وينظر : مقدمة مفاتيح الغيب . للإطلاع على حياة الفيلسوف والعارف الشيرازي .
٢- ينظر : مقدمة مفاتيح الغيب : ١/ ٧ ، وينظر : المنهج الجديد في تعليم الفلسفة – مصباح اليزدي : ١/ ١١٥- ١١٧ – لفهم العلاقة بين الفلسفة والعرفان .
٣- ينظر : الحكمة المتعالية في الأسفار : ١/ ٣٢٤ ، وينظر : تفسير القرآن الكريم – الشيرازي : ٣/ ٢٥٨
٤- ينظر : الحكمة المتعالية : ١/ ٣٢٤ .
٥ - ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٣/ ٢٢ ، وينظر : نظرية المعرفة – جعفر سبحاني :.١٥٢ .
٦- ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٣/ ٢٢ ، وينظر : نظرية المعرفة : .١٥٢ .
٧ - مفاتيح الغيب : ١/ ٢١٤ .
٨ - ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٥/ ٤٦٦ ، ٧/ ٢٧٥ .
٩ - ينظر : نفسه : ٤/ ٩٤ .
١٠ - ينظر :نفسه : ١/ ١٩٢ ، ٤/ ٤٦ ، وينظر : شرح بداية الحكمة – كمال الحيدري : ١/ ٤٦ . الأصالة تعني ما هو منشأ الأثر ، فوجود النار هو منشأ الحرارة والإحراق لا ماهية النار .
١١ - ينظر : مفاتيح الغيب : ١/ ٥. .
١٢ - ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٤/ ٣٥٣ .
١٣ - ينظر : نفسه : ٤/ ٣٧. ، ٧/ ١٩٥ .
١٤ - ينظر : نفسه : ١/ ٤٢٨- ٤٣. ، وينظر : ٣/ ٦. .
١٥ - ينظر : التربية الروحية – كمال الحيدري : ١٣٩ – ١٤. .
١٦ - ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٥/ ٢٢٢ .
١٧ - ينظر : نفسه : ٥/ ٢٤٨ .
١٨ - ينظر : الحكمة المتعالية في الأسفار : ٩/ ١٧٥ .
١٩- ينظر : تفسير القرآن الكريم:٧/ ١٤٦،وينظر : الحكمة المتعالية في الأسفار:٣/ ١.٤- ١.٥
٢٠ - ينظر : الحكمة المتعالية في الأسفار : ٨ /٢٣٢، ٢٥٣ .
٢١ - ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٢/ ٢٨٢ .
٢٢ - ينظر : نظرية المعرفة : ٣١ .
٢٣ - ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٦/ ٢٣ .
٢٤ - التوحيد – كمال الحيدري : ٢/ ٣.٦ .
٢٥ - ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٦/ ٥٨ .
٢٦ - ينظر : نفسه : ٤/ ٣٧٢ – ٣٧٣ .
٢٧ - ينظر : نفسه : ٦/ ٢٤ .

٢٨ ـ ينظر : نفسه : ٣٩٨/١ ، وينظر : المنهج الجديد في تعليم الفلسفة : ٨١/٢ لمعرفة الدليل الفلسفي في إثبات بطلان التسلسل بناء على القول بأصالة الوجود .
٢٩ ـ ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٣٨٤/١ .
٣. ـ ينظر : نفسه : ٣٨٤/١ .
٣١ ـ ينظر : نفسه : ٢٨/٧ .
٣٢ ـ ينظر : شرح بداية الحكمة : ٣٢٥/١ ــ ٣٣٣ .
٣٣ ـ ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٣٩٤/٤ ــ ٣٩٥ .
٣٤ ـ ينظر : نفسه : ٤٨/٤ .
٣٥ ـ ينظر : نفسه : ٤٨/٤ .
٣٦ ـ ينظر : نفسه : ٤٩/٤ .
٣٧ ـ ينظر : نفسه : ١/ ٣٨ .
٣٨ ـ ينظر : نفسه : ٤٣٣/١ .
٣٩ ـ ينظر : نفسه : ٢٨٩/٥ .
٤. ـ ينظر : نفسه : ٧/ ٢٧٤- ٢٧٥ .
٤١ ـ ينظر : نفسه : ١١٧/٦ ــ ١١٨ .
٤٢ ـ ينظر : مفاتيح الغيب : ١٦١/١ .
٤٣ ـ ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٧ / ٤١٩ ــ ٤٢٨ .
٤٤ ـ ينظر : نفسه : ٢٢٧/٥ ــ ٢٣٨ ، وينظر : الحكمة المتعالية في الأسفار : ١٧٦/٩ .
٤٥ ـ ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٤ / ١٥. ــ ١٥٨ .
٤٦ ـ ينظر : نفسه : ١.٧/٧ ــ ١.٨ ، وينظر : معرفة القرآن :٢٣٧ ومابعدها.
٤٧ ـ ينظر : تفسير القرآن الكريم : ٣١/٤ ، ٦/ ٣١ ، ٢٧٩ .
٤٨ ـ ينظر : نفسه : ١٩٢/٧ ــ ١٩٣ .
٤٩ ـ ينظر : نفسه : ١٦٦/٤ .
٥. ـ ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ٥٤/٣ .
٥١ ـ تفسير القرآن الكريم : ٢٥/٦ .
٥٢ ـ ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ٣/ ٦١ .
٥٣ ـ نفسه : ١٣٢/١ .
٥٤ ـ تأويل القرآن ــ كمال الحيدري : ٧٢ .